سلسلة ذخائر التراث الأدبي المغربي (6)

ديوان أبو الحسن بن زنباغ الطنجي

(كان بقيد الحياة عام: 544 هـ)

بسم الله الرحمان الرحيم

الطويل

أرى بارقا بالأبلق الفرد يومض يذهّبُ جلباب الدجى ويفضض

كأن سليمى من أعاليها أشرقت تمد لنا كفا خضيبا وتقبض

إذا ما توالى ومضه نقض الدجى له صبغة المحسود أو كاد ينفضُ

أرقت له والقلب يهفو وهفوه على أنه منه أحد وأومض

وبت أداري الشوق والشوق مقبل عليّ وأدعو الصبر والصبر معرض

وأستنجد الدمع الأبيّ على الأسى فتنجدني منه جداول فيّضُ

وأعذل قلبا لا يزال يروعُه سنا النار يستشري أو البرق ينبِضُ

تظنّهما ثغر الحبيب وخده فذا ضاحك منه وذا متعرّض

إذا بلغت منك الخيالات ما أرى فأنت لماذا بالشخوص معرض

إلى أن تفرّت عن سنا الصبح سدفَة كما انشق عن صفح من الماء عرمض

وندّت إلى الغرب النجوم مروعة كما نفرت عبر من السيل ركّضُ

وأدركها من فجأة الصبح بهتة فتحسبها فيه عيونا تمرّض

كأن الثريا والغروب يحثها لجام على رأس الدجى وهو يركض

وما تمتري في الهقعة العين أنها على عاتق الجوزاء قرط مفضض

سل الحرب عنه والسيوفُ جداول   تدفق والأرماحُ رقط تنضنض

الطويل

وبالأرض من وقع الجياد تمدّد	ولكنه فيما تروم تقيّض
وبالأفق للنقع المثار سحائب	مواخضُ لكن بالصواعق تمخض
وقد سهكت تحت الحديد من الصدا	جسوم بما علّت من المسك ترحض
ومدّت إلى ورد الصدور عيونها	صدور العوالي والعيون تغمضُ
وأشرفت البيض الرقاق إلى الطلى	لتكرعَ فيها والرؤوس تخفض
فلست ترى إلا دماء مراقةً	تخاض إلى أكباد قوم تخضخِضُ

الكامل

أبدت لنا الأيام زهرة طيبها وتسربلَت بنضيرها وقشيبها
واهتز عطف الأرض بعد خشوعها وبدت بها النعماء بعد شحوبها
وتطلعت في عنفوان شبابها من بعدما بلغت عتي مشيبها
وقفت عليها السحب وقفة راحمٍ فبكت لها بعيونها وقلوبها
فعجبت للأزهار كيف تضاحكت ببكائها وتباشرت بقطوبها
وتسربلت حللا تجر ذيولها من لدمها فيها وشق جيوبها
فلقد أجاد الحزن في إنجادها وأجاد حر الشمس في تربيبها
ما أنصف الخيريّ يمنع طيبه لحضورها ويبيحه لمغيبها
وهيَ التي قامت عليه بدفئها وتعاهدته بدرها وحليبها
فكأنه فرض عليه موقّتٌ ووجوبه متعلق بوجوبها
وعلى سماء الياسمين كواكب أبدت ذكاء العجز عن تغييبها
زهر توقّت ليلها ونهارها وتفوت شأوَ خسوفها وغروبه
فضلَت على سير النجوم بأسرها وسروّها في الخَلقتين وطيبها

فتأرّجت أرجاؤها بهبوبها وتعانقَت أزهارُها بنكوبها

وتصوبت فيها فروع جداول تتصاعد الأبصار في تصويبها

الطويل

هوى منجد يلقى به الليل متهم يصرح عنه الدمع وهو يجمجم

يبيت يداري أو يداري ما به ويغلبه أمر الهوى فيسلّم

لأجفانه من كل شيء مؤرق ومن أين للمشتاق شيء ينوّم

وليس الهوى ما الرأي عنه مزحزح ولكنه ما الرأي فيه مفحّم

وأعذر أهل الحب كلمدلة يرى أن من يهدي له النصح ألوم

وأجلد أبناء الزمان مرزأ يقاسي خطوب الدهر وهو مقيّم

ويصعب حمل الهم والهم مفرد فكيف ترى في حمله وهو توأم

ولولا أبو نصر ولذات أنسه تقضّت حياتي كلها وهي علقم

فتى فتح الله المعارف باسمه ومن دونها باب الجهل مبهم

تأخر في لفظ الزمان وإنه بمعناه في أعيانهم متقدم

أتوا بالمعاني وهيَ درّ منظّم وجاء بها من أفقها وهي أنجم

وما يستوي في الحكم راق وغائص لقد نال أسنى الرتبة المتسنّم

إليك أبا نصر بديهة خاطرٍ توالى عليه الشغل وهو مقسّم

أهبت به للقول وهو لما به فلبّى ولم يسعده نطق ولا فم

وكم مصقع لا يرهب القول فعله   ثنته خطوب ما انثنت وهو مفحم

الطويل

ولو لم يكن إلا وداعك وحده ... لأشفق منه يذبل ويلملم

فما يصنع الانسان وهو بفهمه ... يحس بأشتات الأمور ويفهم

وقد كنت تشكيني من الدهر دائباً ... فقد صرت أشكو منك ما أنت تعلم

عليك سلام تسحب الريح ذيلَه ... فيعقب منه كل ما يتنسّم

وإن لم يكن إلا وداع وفرقة ... فإن فؤادي قبلك المتقدّم

البسيط

أهلا وسهلام بكم من سادة نجب   كالذبّل السمر أو كالأنجم الشهب

اجملتمُ وتفضلتم بزورتكم   ولي سينكر فضل من ذوي حسب

أضاء منزلنا من نور أوجهكم   وطاب من عيشنا ما كان لم يطب

الكامل

أبدت لنا الأيام زهرة طيبها ... وتسربلت بنضيرها وقشيبها
واهتز عطف الأرض بعد خشوعها ... وبدت بها النعماء بعد شحوبها
وتطلعت في عنفوان شبابها ... من بعدما بلغت عتيّ مشيبها
وقفت عليها السحب وقفة راحمٍ ... فبكت لها بعيونها وقلوبها
فعجبت للأزهار كيف تضاحكت ... ببكائها وتباشرت بقطوبها
وتسربلت حللا تجر ذيولها ... من لدمها فيها وشق جيوبها
فلقد أجاد الحزن في إنجادها ... وأجاد حر الشمس في تربيبها
ما أنصف الخيريّ يمنع طيبه ... لحضورها ويبيحه لمغيبها
وهيَ التي قامت عليه برفقها ... وتعاهدته بدرها وحليبها
فكأنه فرض عليه موقّتٌ ... ووجوبه متعلق بوجوبها
وعلى سماء الياسمين كواكب ... أبدت ذكاء العجز عن تغييبها
زهر توقّت ليلها ونهارها ... وتفوت شأوَ خسوفها وغروبها
فضلَت على سير النجوم بأسرها ... وسروّها في الخلقتين وطيبها
فتأرّجت أرجاؤها بهبوبها ... وتعانقت أزهارُها بنكوبها

وتصوبت فيها فروع جداول تتصاعد الأبصار في تصويبها

الكامل

تطفو وترسب في أصول ثمارها   والحسنُ بين طفوّها ورسوبها

فكأنما هي موجسات أساود   تنساب من أنقابها للصوبها

فأدر كؤوس الأنس في حافاتها   واجعل سديد القول من مشروبها

فحديث إخوان الصفاء لذاذة   تجني ويومن من جناية حوبها

واركض إلى اللذات في ميدانها   واسبق لسد ثغورها ودروبها

أعريت خيلك صيفها وخريفها   وشتاءها هذا أوان ركوبها

أو ما ترى الأزهار ما من زهرة   إلا وقد ركبت فقار قضيبها

والطيرُ قد خفقت على أفنانها   تلقي فنون الشدو في أسلوبها

تشدو وتهتز الغصون كأنما   حركاتها رقص على تطريبها

الوافر

نزاع ما أرى بك أم نزوع   لقد شقيت به منك الضلوع

يروعك أو يريعك كل داع   أكل مشوّبٍ داع سميع

جهلت وقد علاك الشيب أمراً   يقوم بعلمه الطفل الرضيع

ولولا ذاك ما قدرت أني   أنوء بحمل ما لا أستطيع

بحسبك أو بحسبي منك دهر   يشت بصرفه الشمل الجميع

وشوق تقتضيه نوى شطون   فتقضي عنه واجبها الدموع

حملت الحب مؤتمناً عليه   فكيف يضيع ذلك أو يذيع

لقد جشمت نفسك متلفات   بكل ثنية منها صريع

وحال الصب تخضبه دموع   كحال القرن يخضبه نجيع

وقد تحمي الدروع من العوالي   ولا تحمي من الحدق الدروع

ورب فتى تراع الأسد منه   تقنّص قلبه الرشأ المروع

المنسرح

كذا تصان السيوف في الخلل		ويفخر الخط بالقنا الذُّبُلِ
وتكرَمُ الخيلُ في مرابطها		بر الفتاة العروب بالرجل
ويعطف النبع كالحواجب أو		أحنى وتحمي السيوف كالمقل
ويوثر الشمرة الكميّ إذا		خيّر بين الدروع والحلل
فتح أنارت له البلاد كما		أشرفت المقربات للنهل
هدّت له الروم هدة ملأت		قلوب أبطالهم من الوجل
فما أطاقوا الولوج في نفق		وما أطاقوا الصعود في جبل
ألقوا بأيديهم ولا سبب		يفرق بين الفتاة والبطل
فمجرئي الأسد في مرابضها		كمجرئي الغانيات في الكلل
وربما لم تقم مناصلها		مقام تلك اللواحظ النجل
تغامسوا في الدروع زاخرةً		كي يسلموا من حرارة الأسل
فما أفادتهم الدروع سوى		النقلة من خفةٍ إلى ثقل
كأنهم والرماح تحفزهم		جري فصالٍ سلكن في الوحل
جاؤوا بها سبّقاً مضاعفةً		قد أخلصت بالحديد والعمل

مثل عيون الدبى فصيرها | دم وطعس كأعيس الحجل
هناك سل بالوزير من شهد | الحرب وإن كنت شاهداً فقُل
ولا تخف إن حكيت مغربةً | عنه مقام المكذب الخطل
فإنه الأوحد الذي ترك الد | هر بلا مشبهٍ ولا مثل
حدّث بما شئت عنه من حسنٍ | وعظم الأمر ثم لا تسل
ففضله يبهر الأهلّة في | سعودها والشموس في الحمل

الكامل

لهواك في قلبي كريقك في فمي — غيري يقول الحب مر المطعم

فأدر عليّ بمقلتيك كؤوسه — حتى يدب خماره في أعظمي

إن التلذّذ في هواك تلذّذ — لو كان أقتل من زعاف الأرقم

أحبب بحب لا يشير ملامة — ملئت بموليه عيون النوم

شغل النواظر والقلوب ولم يدع — من لم يسمه من الأنام بميسم

ومن العجائب شغل شيء واحد — في الحال أمكنةً ولم ينقسم

وأقام أزمنةً وليس بجوهر — وجرى وليس بمائعٍ مجرى الدم

يا أيها القمر الذي إنسانه — يرمي أناسا للعيون بأسهم

لم أبد حبا غير أن جوانحي — فاضت به فيض الإناء المفعم

لا ذنب لي علِمَ الذي أسرَرته — نظرا ولم أرمز ولم أتكلم

وأمرت بالشكوى إليك وإنما — ينمى إلى الإنسان ما لم يعلم

ولربما لم تشكني فأماتني — يأسي فذرني تحت أمر مبهم

وتلافني قبل التلاف فإنني — من حمير وسيأخذونك في دمي

الطاعنين بكل أسمر مدعس — والضاربين بكل أبيض مخذم

والواردين الصادرين إذا الوغى		لفحت بجمرتها وجوه الحوّم

ولعلهم تسمو بهم هماتهم		أن يدركوا في الظبي ثأر الضيغم

الوافر

لعماً لك من جواد قد أجادا ونال الغاية القصوى وزادا

وبشر بالتي يسمو إليها سواك فلا تبلغه مرادا

فإني قد رأيت الدهر طلقا تنزل عن خلائقه وحادا

ومنذ بخست حظك وهو كبر أحال على السوى سنة جمادا

ولن يرضى الزمان وأنت فيه تدافع عن محلك أو تعادى

ومثلك وهو أنت ولا مزيد شفى وكفى الملمات الشدادا

ومن وخزته بالنوب الليالي فكيف يطيق عدوا واشتدادا

ولولا ما كففت به فؤادي من الحكم التي تسلي تمادي

ومن يطفئ بنزر الماء نارا فليس يزيدها إلا اتقادا

جزاك اللّه خيرا من صديق أفاد صديقه مما استفادا

ورد عليه صبرا ضل عنه واقسم لا ينال له قيادا

وأنجده على خطب عراه وأدرك فيه ثارا فاستقادا